نشأة الاستشراق وتطوره إلى نهاية الحروب الصليبية

بقلم أ.د/عدالشافي محمد عداللطيف

الخلفية التاريخية للاستشراق :

عـــندما ظهـــر الإســـلام في مطلع القرن 7م ، كانت الحرب مستعرة بين إمبراطورية الفرس الساسانيين1 – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبع دار صادر – بيروت.

والإمبراطورية الرومانية الشرقية – دولة الروم – على أرض الشرق العربي، العـــراق و الشام و مصر، و انتهت تلك الحرب بغلبة الروم على الفرس كما تنبأ القـــرآن الكريم في صدر سورة الروم ، و استردت القسطنطينية سيادتها كاملة على الشام و مصر، وتركت معظم العراق للفرس رغم غلبتهم عليهم.

في هذه الأثناء ، كان الرسول – صلى الله عليه و سلم – قد هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وأقام دولته ، و بنى جيشه ، و انتصر انتصارا كاملا على الوثنـــية العربية ، و دانت له شبه جزيرة العرب، وتوحدت تحت لوائه لأول مرة في تاريخها كله.

و لما كانت الرسالة الإسلامية رسالة عالمية ، موجهة إلى الجنس البشري كله، و لـــيس للعرب وحدهم ، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : { و ما أرســـلنك إلا كافـــة للناس بشيرا و نذيرا}[1]، و قوله : {و ما أرسلنك إلا رحمة

للعالمين }[2]، و قوله :{ قل يـــأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا }[3]، إلى غير ذلـــك من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي تثبت عالمية الإسلام ، و لما كان الأمر كذلك فقد كان لزاما على النبيﷺ أن يبلغ رسالة الإسلام إلى الدنيا كلها ؛ و قـــد فعل ؛ فقد أرسل رسائل إلى كبار ملوك العالم و أمرائه ، يدعوهم إلى إتباعه والإيمـــان برسالته ، فأرسل إلى كسرى فارس ؛ و إلى هرقل إمبراطور الروم ، و إلى إمـــبراطور الحبشـــة ؛ و إلى المقوقس حاكم مصر؛ و كانت رسائل النبي ﷺ إلى هؤلاء الملوك و غيرهم دعوة سلمية إلى الدخول في الإسلام ، و لم ترد في أية رسالة منها كلمة واحدة عن الحرب أو التهديد بها ، و لم يقل رسول الله – صلى الله عليه و ســـلم – لأي من هؤلاء الملوك : " إذا لم تسلم سأقاتلك " ، و ها هو نموذج من هذه الرسائل ، رسالته إلى هرقل ،فقد كان نصها كالآتي:

" بســـم الله الـــرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، السلام عـــلى من اتبع الهدى ، أسلم تسلم، و أسلم يأتك الله أجرك مرتين ، و إن توليت فإن إثم الأكارين عليك"[4]

و لكن الإمبراطور الكبير المنتصر على الفرس ،و الذي كان يعد أقوى رجل في العـــالم في ذلك الوقت ،و دولته أقوى دولة في الدنيا ، عز عليه أن يفارق دينه النصراني و يؤمن بنبي العرب ، مع أنه اعترف بصدق رسالته، فقد روى الطبري أنه جمـــع كـــبار أهل مملكته و بطارقته ، و قال لهم : " إنه قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعـــوني إلى دينـــه، و إنه والله للنبي الذي كنا ننتظـــره و نجده في كتبنا ، فهلموا فلنتبعه ، و نصدقه ؛ فتسلم لنا دنيانا و أخرتنا"[5] ، لكن قومه لم يطاوعوه .

و لـــو وقـــف الأمـــر به و بهم عند عدم الإيمان برسالة الإسلام ، و تركوا المســـلمين يدعون الناس إلى دينهم في حرية وأمان ، لما حدثت حروب بينهم و بين

المســـلمين ، و لكن الجيش الرومي العرمرم كان عدده نحو ثلاثمائة ألف، و معظمه معسكر في الشام لإرهاب الفرس ، و تثبيت انتصاراته عليهم .

هـــذا الجيش لم يترك المسلمين في حالهم ، بل تدخل ضدهم تدخلا سافرا في غـــزوة مؤتة سنة 8 هـــ بدون داع ، و كاد يقضي على الجيش الإسلامي قضاء مـــبرما ، لولا مهارة القائد الفذ خالد بن الوليد ، الذي استطاع بعبقريته و مهارته العســـكرية اســـتخلاص جيشه الصغير — ثلاثة آلاف مسلم — من براثن الجيش الرومي .

و توالـــت الأحـــداث بعـــد ذلك منذرة بصدام لا مناص منه بين المسلمين أصحاب الرسالة التي كلفهم الله تعالى بتبليغها للناس ، و بين دولة الروم التي وقفت لهـــم بالمرصاد ، و تسد الطريق أمامهم بإحكام ، و بدأ الصدام بعد وفاة الرسول ، و في مطلـــع خلافـــة الصـــديق أبي بكر (11 - 13 هـــ / 632 - 634 م) ، واســـتطاعت جحافل الإسلام فتح الشام في سرعة فائقة ، بعد سلسلة من المعارك الـــناجحة ، من أهمها اليرموك و أجنادين[6]، ثم توج فتح الشام بتسلم الخليفة عمر بن الخطاب نفسه لبيت المقدس، من البطريرك صفرونيوس (سنة 15 هـــ / 63)، ثم اضطرت ظروف المسلمين لتأمين فتوحاتهم في الشام إلى السير إلى مصر وفتحها ، ثم تـــابعوا ســـيرهم غربا لتحقيق الغرض نفسه، فأكملوا فتح المغرب كله إلى المحيط الأطلسي، ثم عبروا مضيق جبل طارق و فتحوا الأندلس، و أزالوا منها حكم القوط المســـيحي، ثم تقدمـــت الفتوحات الإسلامية وراء جبال البرانس لتصل إلى أواسط فرنســـا ، ثم ازدادت اتســـاعا لتستولي على معظم جزر البحر الأبيض المتوسط من رودس إلى صـــقلية إلى جنوب إيطاليا ، بل إن بعض الغزاة المسلمين حاصروا روما ذاتهـــا ، العاصـــمة العتيدة للإمبراطورية الرومانية الكبرى ، و مقر البابوية وكنيسة

القديس بطرس، أم الكنائس في العالم المسيحي، و كما حاول المسلمون فتح روما ، فقد حاولوا فتح القسطنطينية العاصمة الثانية للمسيحية .

و محاولة المسلمين فتح روما و القسطنطينية معا معناه السيطرة الإسلامية على مواطن السيادة النصرانية في عاصمتيها الشرقية و الغربية .

و إذا كانــت العاصــمتان العتيدتان قد نجتا من الفتح لفترة من الزمن ، فقد كانت خسارة الدولة الرومانية الشرقية أمام المسلمين خسارة فادحة ، إذ سقطت في أيديهم البلاد التي كانت مهدا للمسيحية ، و بسطوا سلطانهم على كل الأقطار التي تضم أشهر و أكبر الكنائس في الشرق ، مثل كنيسة بيت المقدس ،وكنيسة أنطاكيا، وكنيســة الإســكندرية، و كنيسة قرطا جنة ، و من هنا بدأ الحقد النصراني على الإســلام و المسلمين ، و لم ينته بعد ، و أغلب الظن أنه لن ينقضي إلى نهاية الدنيا مهمــا أجرينا معهم من حوارات ، و عقدنا معهم من ندوات و مؤتمرات ، و مهما جــرى الحديث في تلك المؤتمرات و الندوات ناعما ، و بدا متسامحا ، فإنه لا فائدة ترجى ما دامت القلوب تنطوي على الحقد من جانبهم ، بل الاحتقار و الازدراء لنا و لعقيدتنا ، و نظرتهم دائما نظرة استعلاء و غطرسة .

و لقــد غــذا الاستشــراق مــنذ نشأته –و لا يزال– هذا الحقد في نفوس الأوربيين و لحق بهم الأمريكان ، و جعل جذ وتهم متقدة في النفوس ، و ليس هناك أمــل في أن يزول ذلك الحقد من نفوسهم على الإسلام و المسلمين ، لأنه متأصل ومبــثوث في مــناهج التربــية و التعليم عندهم ، فهم ينشئون الأطفال على كره الإسلام و المسلمين ، و هؤلاء الأطفال الذين ينشأون على ذلك هم الذين يصبحون حكامــا و ساسة و بيدهم القرار السياسي و الصورة أمامنا الآن و كل شيء يجري

أمام عيوننا و نسمعه بآذاننا ، و لا نلاقي منهم إلا الإذلال و الإهانة في كل مكان ، لأنهم يملكون كل وسائل السيطرة و القوة و الهيمنة .

و إن الحـــروب الصـــليبية التي شنها الغرب المسيحي ضد العالم الإسلامي ، وجـــند لهـــا كـــل قواه ، هذه الحروب كانت تنفيسا عن الحقد الدفين الذي غذاه الاستشـــراق ، الذي كانت نشأته الأولى في الكنائس و الأديرة[7] ، و لا شك أن رجـــال الكنائس و الرهبان هم أشد الناس حقدا على الإسلام و المسلمين ، و كل مؤلفاتهم لتشويه صورة الإسلام في نظر الغربيين .

و إذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت في تحقيق أهدافها العسكرية كما هو معروف ، و أن قوة إسلامية فتية قد بزغت بعد ذلك بقليل منذ مطلع القرن الثامن الهجـــري / الـــرابع عشر الميلادي في إقليم الأناضول ، و هي الإمارة العثمانية التي تحولـــت بســـرعة إلى دولـــة ثم إمبراطورية[8] متوسعة على حساب أراضي الدولة الرومانـــية الشرقية ، ثم فتحت معظم أوربا الجنوبية الشرقية ، و توجت ذلك بفتح القســـطنطينية ســـنة 857 - 1453 م ، و بذلـــك قضت تماما على تلك الدولة المسيحية العتيدة ، التي كانت تمثل الفخر و الاعتزاز لكثير من الأوربيين ، و لا شك أن ســـقوط الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها في قبضة العثمانيين قد أوجد شعورا بالمهانـــة و المذلـــة في كـــل أوربا ، لاسيما و أن الخطر العثمانيقد تعاظم ، وأخذ يهددهم تهديدا شديدا ، و أثار الرعب في نفوسهم لأكثر من قرنين من الزمـــان ، و أوشـــك العثمانـــيون عـــلى الاستيلاء على فيينا ، ثم أخذ التاريخ يغير مساره ، فتكالبت كل دول أوربا على الدولة العثمانية ، و ظلت توالي الضغط عليها ، حتى قضـــت علـــيها في نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918 م و اقتسمت دول أوربا

الكـــبرى المنتصـــرة في الحرب ، و بصفة خاصة إنجلترا و فرنسا ، ممتلكات الدولة العثمانية في الشرق .

و في نفس التوقيت تقريبا الذي بدأ فيه الضغط الأوربي على الدولة العثمانية، كانت الكنيسة وراء طرد المسلمين من إسبانيا ، و القضاء على وجودهم الذي دام هـــناك نحـــو ثمانـــية قرون ، و لم يكتف البرتغاليون و الأسبان بطرد المسلمين من الأندلـــس ، و التنكيل بهم في وحشية و همجية ، بل أخذوا يلاحقوهم إلى الشمال الإفـــريقي ، ثم كـــان اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، و تطويق العالم الإسلامي من الخلف ، كل ذلك بتحريض سافر من الكنيسة ، و نجح الأوربيون في إحكام سيطرتهم على العالم الإسلامي منذ ما يقرب مـــن خمسة قرون ، و لا تزال تلك السيطرة مستمرة ، بل ازدادت ضراوة و قسوة بفضـــل التقدم المذهل في الاختراعات العسكرية ، و وسائل التجسس و الاتصالات و جمع المعلومات ، و لم يحدث أن أحس المسلمون بالذل و الهوان و فقدان الكرامة كمـــا يحســـون هذه الأيام من عدو لا يرحم ، و مظاهر هذا كله بادية للعيان و لا تخفى على أحد .

دور المستشـرقين المتعصـبين فــي تشـويه صـورة الإسـلام فــي الغرب :

هذه هي الخلفية التاريخية التي تحكم العلاقات بين العالم الإسلامي و الغرب،و الـــتي نمـــا فيها الاستشراق وترعرع وكان له دور بارز في إذكاء روح العداء بين الإسلام و الغرب المسيحي .

و مما لا ريب فيه أن معظم المستشرقين كان يعمد عمدا إلى تصوير الإسلام ، و رســـوله محمد ﷺ ، تصويرا بشعا ، و يرسم له صورة منفرة، و أنه دين بدائي و

عدواني، و يتسم بالقسوة و الوحشية، و جل بحوث المستشرقين ومؤلفاتهم، و التي تعد بالآلاف تدور حول تركيز و تكريس الصورة السابقة في ذهن القارئ الغربي ، و لقــد نجحوا في ذلك حتى أصبح كره الإسلام و المسلمين و الحقد عليهم شيئا مر كوزا في الشخصية الأوربية، وعلى جميع المستويات .

و لقـبـد كتب المستشرقون كثيرا جدا من الكتب و المقالات لجماهير قرائهم الغربـــيين ، و تناولوا كل شيء يخص الإسلام و المسلمين في ماضيهم و حاضرهم ، يقـــول العلامـــة المحقـــق الكبير الأستاذ محمود محمد شاكر- رحمه الله-: "كتبوا في القرآن، و في حديث رسول الله ﷺ و سيرته ، و في تفسير القرآن ، و في الفقه ، و في تفاصيل شرائع الإسلام ، و في تاريخ العرب و المسلمين ، و في الأدب و اللغة و الشـــعر ، و في الفنون و الآثار ، و في علم البلـــدان (الجغرافيا) ، و في تراجم رجـــال الإسلام ، و في الفرق الإسلامية ، و في الفلسفة عند المسلمين ، و في علم الكـــلام ، وفي كل ما ذكرت و ما لم أذكر، كتبوا و ألفوا و صنفوا ، لكن لهدف واحـــد لا غير ، هو تصوير الثقافة العربية الإسلامية ، و حضارة العرب و المسلمين بصـــورة مقـــنعة للقارئ الأوربي، و بأسلوب يدل على أن كاتبها قد خبر و درس وعـــرف وبذل كل جهد في الاستقصاء ، و على منهج علمي مألوف لكل مثقف أوربي، و أنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه ، بعد خبرة طويلة ، وعرق و جهـــد و إخـــلاص ، حتى لا يشك قارئ في صدق ما يقرؤه ، و أنه هو اللباب المصـــفى مـــن كـــل كدر ، و المبرأ من كل زيف ، و أنه الحق المبين ، و الصراط المستقيم .

كـــان جوهر هذه الصورة المبثوث تحت المباحث كلها هو أن هؤلاء العرب المســـلمين هـــم في الأصل قوم بداة جهال لا علم لهم ، جياع في صحراء مجدبة ،

جـاءهم رجـل مـن أنفسهم فادعى أنه نبي مرسل ، و لفق لهم دينا من اليهودية والنصـرانية ، فصدقوه بجهلهم و اتبعوه ، و لم يلبث هؤلاء الجياع أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم ، حتى كان ما كان ، و دان لهم من غوغاء الأمم مـن دان ، و قامـت لهـم في الأرض بعد قليل ثقافة وحضارة جلها مسلوب من ثقافات الأمم السابقة ، كالفرس، و الهند، و اليونان، و غيرهم ، حتى لغتهم كانت مسلوبة و عالة على العبرية والسريانية و الأرمية و الفارسية و الحبشية ، ثم كان من تصاريف الأقدار أن يكون علماء هذه الأمة العربية من غير أبناء العرب (الموالي) ، و أن هؤلاء هم الذين جعلوا لهذه الحضارة كلها معنى .

هذا هو جوهر الصورة التي بثها المستشرقون في كل كتبهم عن دين الإسلام، و عـن علوم أهل الإسلام ، وفنونهم، و آثارهم و حضارتهم ، و أن هذه الحضارة إنمـا هـي إحدى حضارات القرون الوسطى المظلمة ، التي كان العالم يومئذ غارقا فيها -يعنون عالمهم هم - ، يجري عليهم حكم قرونهم الوسطى ، بثوا تلك الصورة في كـل كتبهم ، بمهارة وحقد و خبث معرق ، و بأسلوب يقنع القارئ الأوربي المـثقف الآن كل الاقتناع و تنحط في نظره حضارة الإسلام ، وثقافته ، انحطاط القرون الوسطى ، ويزداد بذلك زهوا ، فان أسلافه من اليونان و الأوربيين كانوا هـم ركائز هذه الحضارة المزيفة الملفقة دينا و لغة و علما و ثقافة و أدبا و شعرا، ويـزداد بذلك الأوربي أيا كان غطرسة و تعاليا و جبرية و لا يرى في الدنيا شيئا له قيمة إلا و هو مستمد من أسلافه الأوربيين "[9] .

و إذا كان أحد يرتاب في هذا الكلام و يدعي بأنه رأى عالم مسلم متحامل على المستشرقين ، فإليك نموذج من كلامهم و آرائهم في الإسلام و المسلمين :

يقول المستشرق الفرنسي كيمون في كتاب له بعنوان " باثولوجيا الإسلام :

" إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس ، و أخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هي مـــرض مريع و شلل عام، و جنون ذهولي يبعث بالإنسان على الخمول و الكسل ، و لا يوقظــه مــنها إلا ســفك الدماء ، أو يدمن على معاقرة الخمر، و يجمح في القــبائح، و مـــا قـــبر محمد إلا كعمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الاثيان بمظاهر الصراع العامـــة ، و الذهول العقلي "[10] .

هـــذا هو علم معظم المستشرقين ، و هذه هي آراؤهم و نظرتهم إلى الإسلام ورســـوله و رســـالته ، و هـــذه النظرة الحاقدة الظالمة هي التي ترسبت في الذهنية الأوربية إلى يوم الناس هذا ، و حتى إذا وجد بعض المنصفين من المستشرقين ، الذين قـــالوا كلمة الحق عن الإسلام و رسوله و حضارته ، فإن أصواتهم قد ضاعت تماما وسط الركام الهائل من الحقد والكراهية للإسلام و المسلمين .

بداية الاستشراق :

الاستشـــراق – دون الدخول في تفاصيل طويلة تحدد المفهوم الجغرافي لكلمة الشرق التي اشتق منها المصطلح ، و لأننا نعدها كلمة ذات مدلول حضاري أكثر مـــنها ذات مدلـــول جغرافي ، و لأننا نرى أن الأندلس (شبه جزيرة أيبريا) و إن كانت تعد من الغرب جغرافيا، فهي تنسب إلى الشرق حضاريا أثناء الوجود العربي الإسلامي فيها، الذي استمر نحوا من ثمانية قرون ، كانت خلالها مركزا متقدما من مراكز الحضارة العربية الإسلامية ، و على هذا الأساس نعد الذين يتناولون الحضارة الإسلامية في الأندلس مستشرقين ، حتى و لو كانوا من أبناء الأسبان أنفسهم .

لكل هذا نقول أن الاستشراق هو حركة أو ظاهرة أو مصطلح علمي قديم ، تناول جميع الدراسات المشرقية بصفة عامة ، و الدراسات العربية و الإسلامية بصفة خاصة ، و المستشرقون هم أولئك العلماء - رجالا و نساءا - الذين كرسوا حياتهم

للدراسات الشرقية ، و لأغراض متباينة ، و الذي يهمنا هنا هو الاستشراق الخاص بالدراسات العربية و الإسلامية ، و قد تناول هؤلاء المستشرقون الإسلام عقيدة و شريعة و حضارة من جميع النواحي ، كما سبقت الإشارة.

و إذا كان الاستشراق قد بدأ في الأوساط الدينية ، و في الكنائس و الأديرة، و من منطلق البغض و التعصب و الحقد على الإسلام و رسوله و رسالته ، و تأثرا بالخلفـــية التاريخية التي أفضنا في الحديث عنها في مطلع هذا البحث، أقول إذا كان الاستشـــراق قد بدأ هذه البداية العدائية الضيقة الأفق ، إلا أنه أخذ يتطور و يتسع نطاقه بمرور الزمن ، حتى عم كل أرجاء أوربا ، ثم العالم الجديد فيما بعد ، بحيث لا تكاد توجد جامعة أو معهد علمي في كل أوربا و أمريكا الآن إلا و هي تضم قسما أو أكثر للدراسات العربية و الإسلامية .

و الـــذي يطـــالع بعض الكتب و الأبحاث التي ترجمت للمستشرقين فقط ، وذكرت أسماءهم و عناوينهم ومؤلفاتهم مثل كتاب " المستشرقون " للأستاذ نجيب العقيقي ، و هو في ثلاثة مجلدات كبار ، و يزيد عدد صفحاته على ألف وخمسمائة صـــفحة، يدرك كثرة عدد المستشرقين كثرة هائلة ، فهم يعدون بالآلاف ، و ليس بالمـــئات، مع أن هذا الكتاب ألف منذ عشرات السنين ،و لم يستوعب كل شيء بطبيعة الحال عن المستشرقين، و من هذا القبيل كتب أصغر حجما و تعني بالتأريخ للاستشـــراق و المستشرقين في أقطار معينة ، مثل دراسة المستشرق الألماني رودي بـــارت بعـــنوان " الدراسات العربية و الإسلامية في الجامعات الألمانية "و دراسة الدكتور إسحاق موسى الجسيني بعنوان " علماء المشرقيات في إنجلترا " ... الخ ، من يطـــالع هذه الكتب و أمثالها يدرك حجم و اتساع حركة الاستشراق ، و إنها و إن بـــدأت ضيقة الأفق في أوساط الكنيسة و الديرية ، إلا أنها بدأت تتخلص من بعض

النظرات المتعصبة الحاقدة ، و بدأنا نقرأ أبحاثا فيها كثير من الإنصاف للإسلام ورسوله و حضارته ، بل بدأنا نرى علماء كثيرين في الغرب يعترفون صراحة بفضل الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوربية ، و أنها كانت الأساس والشرارة التي انطلقت منها النهضة الأوربية ، و من هذا القبيل كتاب المستشرقة الألمانية س s يجريد هونكة " شمس الله تسطع على الغرب " .

لكن للأسف الشديد ، و على الرغم من تحرر كثير من المستشرقين من نظرة الحقد و التعصب على الإسلام في كتاباتهم و أبحاثهم ، إلا أن ذلك كله ظل في دائرة العلماء و الأوساط الأكاديمية ، و ظلت الصورة الشائعة الكريهة التي رسمتها الأبحاث المتعصبة هي الباقية و المترسبة في الذهنية الأوربية بصفة عامة ، فنظرة الرجل الأوربي العادي إلى الإسلام ، و كل من و ما ينتمي إليه نظرة يحكمها الاستعلاء و الازدراء ، لأن مناهج التعليم التي يتلقاها الأطفال في أمريكا و أوربا حافلة بكل ما يحقر من الإسلام و المسلمين، فعندما يشب هؤلاء الأطفال ، وينهون دراساتهم ، و يصبحون رجالا في مواقع المسئولية و إصدار القرار ، فانهم لا يستطيعون انفكاكا من الصورة القبيحة التي تلقوها عن الإسلام في مراحل التعليم المختلفة ، فتكون تصرفاتهم و قراراتهم فيما يتعلق بعلاقاتهم بالعالم الإسلامي محكومة بصفة عامة بهذه الخلفية ، و لا تؤثر فيها مطلقا الدراسات المنصفة ، لأنها لا تجد الرواج على نطاق واسع ، و يبدو أن الأمر متعمد ، و الدلائل على ذلك لا حصر لها .

نعود إلى الحديث عن بداية الاستشراق و الدراسات الاستشراقية ، تلك البداية التي لم يحسم القول فيها حتى الآن، و إن كنا نتفق مع من يرى أنها تعود إلى

بدايــات ظهــور الإسلام ، و احتكاكه بالعالم المسيحي الذي بدأ أولا في ساحات القتال كما أشرنا فيما سبق .

و لقد بدأ الاستشراق في الشرق نفسه قبل أن يبدأ في الغرب ، و على أيدي رجال اللاهوت المسيحي في الكنائس و الأديرة ، فالقديس يوحنا الدمشقي (82 – 137 هـــ / 700 – 755 م) الذي كان واحدا من كبار رجال الكنيسة في الشام، و كـــان قريبا من البلاط الأموي ، إلا أنه كان شديد البغض للإسلام والمسلمين ، ولعله أول من بدأ في التشكيك في الإســلام ، و هز صــورة النبي ﷺ و الإساءة إليه ، فقد لقن أنصاره قصصا و أخبارا ملفقـــة و مزورة عن النبي ﷺ ، وروجوها عــلى نطاق واسع ، حتى وجدت طريقها إلى كتب التفسير، بصفة خاصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة ﷺ ، فقد زعموا — زورا و بهــتانا — أن ذلــك الــزواج كان وراءه قصة عشق بين النبي ﷺ و بين زينب[11]، كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا .

و هــذه الفــرية التي ابتدعها و لفقها ذلك النصراني الحاقد راجت للأسف الشــديد ، و قبلها مفسر كبير كابن جرير الطبري ، و تناقلها عنه غيره ، فكانت أعظــم فرية افتريت على رسول الله ﷺ و تجافي تماما خلقه ، و ما طبع عليه من الطهـر و العفــة ،و لم يثبت في الصحاح شيء من هذا ، و لم ينقل عن أحد من الصــحابة بطــريق مقبول ، و هذا الذي لفقه يوحنا الدمشقي صورة مصغرة من تلفــيقات رجال اللاهوت المسيحي لتقويض أسس العقيدة الإسلامية ، فالسلطات الكنسية شرعت منذ وقت مبكر تهاجم بالجدل و المناظرات أسس العقيدة الإسلامية بأســلحة فكــرية عــن طريق انتشار الثقافات ، بما تحمله من الدس و الشبهات ،

والـــثقافات في الحقـــيقة تغـــزو المجتمعات ، و قد يكون غزوها أشد فتكا من غزو الجيوش العسكرية.

يقـــول المستشرق الفرنسي ألفريد غيوم ف مقال له بعنوان " الفلسفة و علم الكلام " : " و بمرور الزمن أسلم الكثير من اليهود و النصارى تخلصا من الجزية التي كانت تجبى من الموحدين ، من أهل الكتاب من غير المسلمين ، فهؤلاء الذين دخلوا كـــنف الديـــن — الإسلامي — حملوا معهم ثقافة الإمبراطورية البيزنطية ، و ثقافة الـــيونان ، و هذه الإنشقاقات الواسعة أفزعت السلطات الكنسية ، فشرعت تهاجم بالجدل و المناظرات أسس العقيدة الإسلامية .

ثم يســـتطرد قـــائلا : فالقديس يوحنا الدمشقي كان يستطيع أثناء مناظراته إقحـــام مـــناظريه المسلمين ببراهين ثابتة مطواعة... كان يوحنا و أمثاله يجادلون بحـــرارة شديدة ، و ستدلون بالإسرائيليات ، فإذا وجدوا الفرصة ساخنة دسوا ما يريدون دسه على المسلمين ، و ربما اتخذوا من الروايات الإسرائيلية التي تقول : إن داود — علـــيه السلام — أحب زوجة قائده أوريا ، و أنه عمل على التخلص منه حـــتى القتل ، فتزوجها داود بعده ، ربما عملوا مقارنات و معادلات بينها و بين ما زعموه في قصة زواج النبي ﷺ من زينب "[12] .

هذا الذي لفقه و زوره يوحنا الدمشقي ، الذي يوصف بالقديس ، عن النبي ﷺ في زواجه من زينب بنت جحش قد يظنه بعض الناس أمرا هينا ، لكنه عند الله عظـــيم ، فهـــو تشويه لسورة النبي ﷺ الذي يعد المثل الأعلى لكل مسلم ، و إذا شوهت صورة النبي المعصوم ، فماذا يبقى للمسلمين من قيم و أخلاق ؟

يقـــول الأستاذ عباس محمود العقاد في هذا الصدد[13] : " و ما اتفق خصوم الإســـلام عن سوء نية على شيء كما اتفقوا على خطة التبشير في موضوع زواج النبي ﷺ على الخصوص، فكلهم يحسب أن المقتل الذي يصاب منه الإسلام في هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبي ﷺ و تمثيله لأتباعه في صورة معيبة ، لا تلائم شرف النـــبوة ، و لا يتصـــف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح ، و أي صورة تغنـــيهم في هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد ، العازف في معيشته البيتية و رسالته العامة عن عفاف القلب و الروح ، إنهم لعـــلى أشـــد الصواب في الخطة التي تخيروها لإصابة الإسلام في مقتل هذا الطريق الوجـــيز ، و إنهـــم لعلى أشد الخطأ في اختيارهم هذه الخطة بعينها ، إذ أن جلاء الحقـــيقة في هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه، المطلع على سيرة نبيه ، فإذا بمقتله المظنون حجة يكتفي بها المسلم ،و لا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبـــيه ، و تبرئة دينه من قالة السوء الذي يفترى عليه ،فلا حجة للمسلم على صدق محمـــد ﷺ في رســـالته أصدق من سيرته في زواجه و في اختيار زوجاته ، و ليس للنبوة آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته ، ما الـــذي يفعله الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد إذا بلغ من المكانة و السلطان ما بلغه محمد في قومه ؟ لم يكن عسيرا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب ، وأفتن جـــواري الفرس و الروم على تخوم الجزيرة العربية ، و لم يكن عسيرا عليه أن يفور لنفسه و لأهله من الطعام و الكساء و الزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانـــه ، فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟ هل فعل ذلك في مطلع حياته ؟ كلا لم يفعلـــه قط ، بل فعل نقيضه ، و كاد يفقد زوجاته لشكاياتهن من شظف العيش في داره ... و السيدة زينب بنت جحش — ابنة عمته — زوجها من مولاه و متبناه

زيــد بــن حارثة ، فنفرت منه ، و عز على زيد أن يروضها على طاعته ، فأذن له الــنبي في طلاقهــا ، فتزوجها عليه السلام ، لأنه مسئول عن زواجها ، و ما كان جمالهــا خفــيا علــيه قــبل تزويجها من مولاه، لأنها كانت بنت عمته ، يراها من طفولتها، و لم تفاجئــه بروعة لم يعهدها .

نعــود إلى يوحنا الدمشقي ، الذي يوصف بالقديس ، و الذي يمثل بواكير الاستشــراق الكنسي الحاقد على الإسلام و رسوله و رسالته و حضارته ، و الذي نشــأ في الشام ، في كنف الدولة الأموية ، و مع ذلك نجح في بث سموم أفكاره ، حتى عرفت طريقها لكتب تفسير القرآن الكريم .

و يعاصــر يوحــنا الدمشقي و يماثله في الحقد على الإسلام ، رجل لاهوت مسيحي آخر عاش في مصر ، و هو حنا النقيوسي .

و قــد يقول قائل إن هذين الرجلين و أمثالهما لا يعدون مستشرقين ، لأنهم أصــلا من الشرق ، و المستشرق في عرف الناس هو رجل غربي يهتم بالدراسات الشــرقية ، و هذا القول ليس صحيحا ، لأن الشرق و الاستشراق في رأينا مفهوم حضــاري أكــثر منه مفهوم جغرافي ، و قد قلنا من قبل إن الأندلس تعتبر شرقية حضــاريا ، و إن كانت غربية جغرافيا ، و بهذا المفهوم ، فإننا نعد كل من يهاجم الإســلام و يطعــن في أسس عقائده ، و يغمز و يلمز ، فهو مستشرق مهما كان موطنه .

و ليوحــنا الدمشــقي ، و حنا النقيوسي الذين عاشا في أواخر القرن الأول وبداية الثاني الهجري امتداد حتى الوقت الحاضر ، فرجال مثل عزيز عطية سوريال ، هــو مصري مسيحي كان أستاذا بجامعة الإسكندرية ، ثم ذهب ليدرس في إحدى الجامعــات الأمريكية، و هو شديد الحقد على الإسلام في كتاباته ، و مثل بطرس

عـــبد الملـــك ، و هـــو الآخـــر مصري مسيحي ، كان أستاذا بالجامعة الأمريكية بالقاهـــرة، ثم هاجـــر إلى أمريكا و اشتغل بالتدريس في جامعة برنستون ، و مثل فيليـــب حـــتي ، و هـــو لبـــنان مســـيحي ، هاجـــر إلى أمريكا و أخذ الجنسية الأمريكـــية،وعمل بالتدريس في قسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون ، و له العديد من المؤلفات عن تاريخ العرب و الإسلام ، و غير هؤلاء كثيرون ، و كلهم رغـــم انضـــمامهم جغرافيا إلى الشرق ، فالهم بمناصبتهم الإسلام العداء يعدون في نظـــرنا مستشرقين[14]، و امتداد ليوحنا الدمشقي و حنا النقيوسي و هم يشبهون حـــركة الشعوبية التي ظهرت في العصر العباسي الأول 132 - 232 هـــ من بين الفـــرس خاصـــة ، و الـــتي عمدت إلى تحقير العرب و الحط من مكانتهم لتقويض رسالتهم[15].

تطور الحركة الاستشراقية :

و هذه الحركة أو هذه الظاهرة الاستشراقية التي بدأت منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، على يد القديس يوحنا الدمشقي و حنا النقيوسي و أمثالهما، بـــدأت تتسع و يمتد نطاقها مع اتساع الفتوحات الإسلامية ، و امتدادها إلى أوربا عن طريق الأندلس ، و صقلية ، و جنوب إيطاليا ، و يمثل هذا التطور مكانا بارزا في تاريخ الاستشراق ، لأن أوربا بعد أن وصلت إليها الفتوحات الإسلامية ، و بعد أن بدأت الحضارة الإسلامية في الازدهار في تلك المراكز الأوربية بدأت ترقب عن كثـــب ما يجري في قرطبة و طليطلة و أشبيلية و غيرها من المدن الأسبانية ، فقررت الاستفادة من الحضارة الإسلامية ، و هذا تطور كبير في حركة الاستشراق، و بداية الـــتخلص شيئا فشيئا من قيود التعصب الكنسي ، فقد وجد كثير من الأوربيين أن

الحضـــارة الإسلامية بدأت تتألق لا في الشرق الإسلامي فحسب ، بل في الأجزاء الأوربية التي وصلتها الفتوحات الإسلامية ، في الأندلس و صقلية و غيرها .

فقـــد كتبـــت أسبانيا العربية الإسلامية صفحة من أروع صفحات الحضارة الراقـــية في تاريخ حضارة القارة الأوربية في العصور الوسطى ، يوم أن كانت أوربا كـــلها تتخبط في الظلام، و لقد بدأت تخرج من هذا الظلام يوم أن عرفت الحضارة العربـــية الإســـلامية ، و قدرت قيمتها و أهميتها ، فبدأت ترسل أبناءها للتعليم في مراكـــز الحضارة الإسلامية في الأندلس، و في مدنها العامرة ، مثل قرطبة و طليطلة وأشبيليا و غيرها ، و هذا الاتجاه كان تطورا إيجابيا في مسيرة الاستشراق بالنسبة إلى أوربا عاد إليها بفوائد كثيرة[16] .

و قد اتخذ إقبال الأوربيين على الاستفادة من الحضارة العربية شكلا منظما ، ممـــا جعلـــه استشـــراقا على أسس علمية ثابتـــة واضحة ، فقد اهتمـــت الدول الأوربـــية بإرســـال بعثات علمية إلى بلاد الأندلس العربية لدراسة العلوم و الفنون والصـــناعات الـــتي في معاهدها الكبرى ، نتيجة ذيوع شهرة الأندلس و حضارتها الزاهرة في إنجلترا و فرنسا.

و هناك أمثلة كثيرة توضح هذا الاستشراق العلمي المنظم ، ففي مطلع القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وصلت بعثات علمية من إنجلتـــرا و فرنســـا إلى إســـبانيـــا العربية ، وصل عدد طلابها إلى نحو سبعمائة طالب و طالبة لتلقي العلم هناك[17].

الاستشراق و الحروب الصليبية :

كانت الهجمة البربرية التي شنها الغرب الأوربي على الشرق الإسلامي، والتي عرفـــت بالحروب الصليبية،و التي دامت نحو قرنين من الزمان ، كانت هذه الهجمة

نتـــيجة للشـــحنة الهائلة من الكراهية و البغضاء و الحقد على الإسلام و المسلمين ، والـــتي شـــحن بها المستشرقون المتعصبون ، و بصفة خاصة من الأوساط الكنسية والديرية ، الشعوب الأوربية ضد الإسلام و المسلمين ، فان معظم الجموع الهمجية الهائجـــة الـــتي هاجمـــت الشـــرق الإســـلامي ، كانت تعتقد بأن المسلمين كفرة ومتوحشـــين، كما علمتهم الكنيسة و رجالها من المبشرين والمستشرقين على مدى أجـــيال ، و مـــا دام المســـلمون كفرة ، و متوحشين فيجب إبادتهم ، بل إن البابا أخـــبرهم بـــأن قتال هؤلاء المسلمين الكفرة واجب ديني مقدس، و وعدهم بغفران ذنـــوب مـــن يشـــترك فـــيها ، فضلا عن الغنائم الوفيرة[18] ، فاندفعوا اندفاعتهم الوحشية، و كان ما كان.

و هـــذه الحـــروب الصليبية التي كانت نتيجة الحقد الدفين لدى الغربيين ، والذي غزاه الاستشراق المتعصب ، هذه الحروب ذاتها زادت من جذوة الكراهية ، و العـــداء المتبادل بين المسلمين و الأوربيين ، و أدت إلى اتساع دائرة الاستشراق ، فقد فوجئ الصليبيون بأن الشرق الإسلامي لم يكن بلاد الكفر و الجهل و الوحشية كمـــا علمـــتهم الكنيســـة و شحنتهم بالعداء على مدى أجيال، بل وجدوه يتمتع بحضـــارة زاهرة ، جديرة بأن يتعلموا منها ، و لكن الغريب أنهم لم يتخلوا قط عن روح العداء و التعصب ضد الإسلام و المسلمين ، و انعكست روح العداء هذه في دراســـات المستشرقين الذين نشأوا أثناء الحروب الصليبية و بعدها ، الذين أخذوا يتعلمون اللغة العربية لا حبا فيها ، و لكن لأنها وسيلة جيدة من وجهة نظرهم لفهم الإسلام أكثر،لا للتفاهم مع المسلمين بل محاربتهم[19].

و هـــاهو واحد من المستشرقين المعاصرين ، و هو المستشرق الألماني رودي بـــارت يعـــترف صـــراحة بهذا الاتجاه الذي أخذه مسار الاستشراق أثناء الحروب

الصليبية و بعدها ، فيقول: " إذا نظر المرء إلى الوراء ، إلى تاريخ تطور الاستشراق، و لم يـتردد في تبسيط رغبة في زيادة الوضوح ، فإنه يستطيع أن يقول : إن بداية الدراسـات العربـية و الإسـلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر ، ففي عام 1143 مـيلادي تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية ، بتوجيه من الأب بيتروس فينيرابيلـيس ، رئـيس دير كلوني و كان ذلك على أرض إسبانيا ، و على الأرض الإسـبانية ، و في القرن الثاني عشر أيضا نشأ أول قاموس لاتيني عربي و في القرن الثالـث عشـر و في القرن الرابع عشر ، بدل رايموندوس ، المولود بجزيرة ميورقة جهـودا كبيرة لإنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية ، و كان قد تعلم اللغة العربية عـلى يد عبد عربي ، وكان الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر و القرون التالية هو التبشير ، و إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان دينهم واجتذابهم إلى الدين المسيحي، و يمكـن الإطلاع على هذا الموضوع بتفصيلاته في الكتاب الكبير الذي وضعه نور من دانييل باسم " الإسلام و الغرب" سنة 1960 ميلادي ، الطبعة الثانية 1963 م. و كـان موقـف الغرب المسيحي في العصر الوسيط من الإسلام هو موقف العداء والمشـاحنة فحسب ، حقيقة إن العلمـاء و رجال اللاهوت في العصر الوسيط كـانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام ، و كانوا يتصلون بها على نطـاق كبير ، و لكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما ، كانت تصطدم بحكم سابق ، يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يكـون فيه خير ، و هكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلى تلك المعلومات التي تـتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل ، و كانوا يتلقفون بينهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي و دين الإسلام "[(20)] .

هذا هو اعتراف واحد من كبار المستشرقين الأوربيين المعاصرين ، أن موقف العداء و التعصب من طائفة كبيرة من المستشرقين ، و بصفة خاصة رجال اللاهوت ضد الإسلام و رسوله و رسالته ، هذا الموقف العدائي لم يتغير حتى بعد احتكاكهم الطويـــل بالمسلمين في الحروب الصليبية ، و اضطلاعهم على الحضارة الإسلامية ، وعـــلى التســـامح الإسلامي الذي كان يتحلى به القادة المسلمون تجاه الصليبيين ، وبصـــفة خاصـــة صـــلاح الدين الأيوبي الذي ضرب أروع الأمثلة في التسامح مع الأعداء ، و معاملتهم معاملة كريمة[21].

كـــل ذلـــك لم يؤثـــر فيهم ، و لم يحملهم على مراجعـــة مواقفهم ، لأن شحنة العداء التي شحنتهم بها الكنيسة ورجالها كانت أكبر و أعمق من قدرتهم على التخلص منها ، فاستمروا في عدائهم و حقدهم ، بل أخذ هذا العداء، وذلك الحقد في الازديـــاد بعـــد أن غير التاريخ مساره ،و أصبحت الغلبة للأوربيين على العالم الإســـلامي منذ طرد المسلمين من الأندلس في نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشـــر مـــيلادي ، و مطـــاردتهم إلى شمال إفريقيا ، ثم تطويق العالم الإسلامي من الخلـــف، و وصول الأساطيل البرتغالية إلى مداخل البحر الأحمر الجنوبية ، و تلتها الأســـاطيل الإنجليزية والفرنسية و الهولندية ... الخ ، و بدأت قصة استعمار أوربا لمعظم بلاد و أقطار العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، و هنا دخل الاستشراق لـــيقوم بمهمـــة تســـهيل أمر السيطرة الغربية على العالم الإسلامي ، منفذين كل الدراســـات التي يحتاجها رجال السياسة و صناع القرار في العواصم الغربية ، الذين كـــان يهمهـــم الوقوف على التاريخ العربي و الإسلامي ، و الكشف عن الحضارة العربـــية و الـــتراث الإســـلامي ، فأحسنت كل دولة إلى مستشرقيها ، فضمهم ملوكهـــم إلى حاشـــيتهم ، أمناء أسراره و تراجمه ، و انتدبوهم للعمل في سلكي

الجيش و الدبلوماسية إلى بلدان الشرق و ولوهم كراسي اللغات الشرقية ، في كبرى الجامعـــات و المـــدارس الخاصة ، و المكتبات العامة و المطابع الوطنية ، و أجزلوا عطـــاءهم في الحـــل و الـــترحال ، و مـــنحوهم ألقاب الشرف و عضوية المجامع العلمية(22).

لـــيس من غرضنا من كل ما تقدم في هذه الورقة أن نصف كل المستشرقين بالتعصـــب ضـــد الإسلام و المسلمين ، ولا أن نجحـــد فضل المستشرقـــين على اخـــتلاف اتجاهـــاتهـــم و مشـــاربهم في الكشف عن كثير من كنوز حضارتنا ، وتحقيقهم للكثير من مخطوطاتنا العربية الإسلامية ، و بعثها في ثوب جديد وقشيب، كـــل ذلـــك نذكره و نشكرهم عليه ، لأننا قوم لا نجحد فضل صاحب الفضل ، هكـــذا علمنا ديننا ، و علمنا رسولنا صلى الله عله و سلم ، و لكن الذي نريد أن يعمله قومنا أن الأصوات العاقلـــة و المنصفة من بين المستشرقـــين ،و التي أنصفت الإســـلام و رســـوله و رسالته وحضارته ، و هي كثيرة ، هذه الأصوات ضاعت وسط الأصوات الحاقدة المتعصبة ، و لم يعد لها أثر في الذهنية الأوربية و الأمريكية، و الأثـــر الذي بقي في الذهنية هو الأثر السلبي السيئ الذي تركته الكتابات الحاقدة والمتعصـــبة ،و الذي لا يزال يوجه شعور الأوربيين نحو الإسلام و المسلمين ،و هو شـــعور الاســـتعلاء و التكـــبر على كل ما هو إسلامي، فهل يجدي أن نظل نحن متسامحين مع قوم يكنون لنا كل الكره و العداء و الاحتقار والازدراء ، و كل هذا يعـــلمونه لأولادهـــم في مدارسهم و جامعاتهم ، ليشبوا على كرهنا و احتقارنا ، و بهـــذه المناسبة كتبت أستاذة مصرية تعمل في جامعة جنيف بسويسرا مقالا حديثا في جـــريدة الأهـــرام القاهرية عن صورة الإسلام في المناهج الدراسية في الغرب ، ســـأنقله هـــنا كاملا ، لأنه مهم جدا ، و يغني عن كل تعليق ، لأنه شهادة أستاذة

جامعية تعيش في الغرب ، و بين أهله ، و تحس بشكل مباشر بما يكنونه لنا في قرارة نفوسهم ، تقول الأستاذة الدكتورة فوزية العشماوي[23].

"إن قضية صورة الإسلام في المناهج الدراسية في الدول الأوربية و الأمريكية مــن أهــم القضايا التي وجب أن يوليها القائمون على التربية و التعليم في الدول العربية و الإسلامية اهتمامهم، إذا رغبنا في التعايش السلمي، والرغبة الحقيقية في أن يســود العالم سلام شامل و عادل ، و علينا أن نعيد قراءة كتب التاريخ المدرسية ، خاصــة إعــادة قــراءة ما سطره الغربيون في كتب التاريخ المدرسية عن الإسلام والمســلمين ، بهدف تقليل الاختلاف و الحد من التناقضات التي تعرقل الحوار بين الشــمال و الجنوب ، فيجب أن نستخرج من المناهج الدراسية كل الأنماط الثابتة ، أي الأنمــاط الذهنــية المتكونة عن المسلمين في الوعي الأوربي ، و الصورة التي يتم تكــرارها بأســلوب سلبي كلما جاء ذكر المسلمين ، و كذلك الأحكام التقديرية المســبقة التي تعكس وجهة نظر متعنتة تجاه الإسلام ، و تبرز مدى تحيز مؤلفي تلك المناهج التاريخية وفقداهم لروح الموضوعية .

و ســنقدم بعض الاقتراحات لإعادة صياغة المناهج الدراسية بهدف تصحيح الأفكــار المســبقة ، و المعتقدات الخاطئة المتوارثة ، و ذلك ف سبيل تحقيق مفهوم أفضل عن الآخر ، و تعريف أفضل بالتاريخ الإسلامي الصحيح :

أوربــا محور العالم : حيث ستعرض كتب التاريخ المدرسية الغربية ، و تقوم بتحليل ما تذكره عن الإسلام و عن العالم الإسلامي ، نجد أن الصفحات المخصصة لعرض كل ما يتعلق بالإسلام لا يزيد عن عشر صفحات من إجمالي كتاب التاريخ، الــذي يتراوح عدد صفحاته في الغالب ما بين 200 ، 300 صفحة ، أي النسبة لا تزد عن 3 بالمائة من المقرر الدراسي ، و هي نسبة ضئيلة جدا بالمقارنة بباقي المقرر،

أي بنســبة 97 بالمائة المخصصة لتاريخ أوربا و أمريكا، و في الغالب يكون الفصل المخصـــص للعـــالم الإسلامي مندرجا في إطار بلاد العالم الثالث سواء من الناحية الجغرافـــية ، أو مـــن الناحـــية التاريخـــية ، و أحيانا يأتي ذكر الإسلام و المسلمين كحضـــارة من الحضارات أو كتيار من التيارات الدينية والإيديولوجية التي عرفتها الإنسانية عبر التاريخ ، و المنتشرة حاليا في العالم ، و كثيرا ما يأتي ذكر الإسلام في إطـــار توزيع الثروات الطبيعية في العالم ، و يقترن ذكر الإسلام و المسلمين بالبلاد المنتجة للنفط ، لأن معظمها يدين بالدين الإسلامي، و لقد لاحظنا أن معظم المناهج الدراســية في الـــدول الأوربـــية تجعل من أوربا المحور الذي تدور حوله الأحداث التاريخـــية المهمة ، وَ لا تعرض كتب التاريخ ما جرى من أحداث تاريخية مهمة في دول الجـــنوب ، أو في منطقة الشرق الأوسط ، وقارتي آسيا و إفريقيا ، فالاهتمام كله منصب على أوربا و تاريخها القديم و الحديث ، أما الأحداث التاريخية المهمة ، التي تعتبر علامات ثابتة في تاريخ الأمة العربية و الإسلامية ، فيتم إغفالها تماما و يتم التركـــيز فقط على بعض الأحداث غير ذات الأهمية ، و التي تبرز مثالا تفوق أوربا وانتصارها على المسلمين .

لقـــد قمـــنا عام 1994 م بإجراء دراسة مقارنة باللغة الفرنسية عن صورة المســـلم في كتـــب التاريخ المدرسية في بعض دول البحر الأبيض المتوسط : فرنسا وإسبانيا و اليونان ، تحت إشراف اليونسكو ، و قد اهتممنا في هذه الدراسة بكتب الـــتاريخ في نهايـــة المرحلة الابتدائية ، وجاء في نتائج البحث أن التاريخ الذي يتم تدريسه للتلاميذ الأوربيين الصغار يعلمنا أشياء مختلفة تماما عما يتم تدريسه للتلاميذ العـــرب المســـلمين في مدارس جنوب البحر الأبيض المتوسط ، كما لا يتم عرض المفاهيم الإسلامية بأسلوب علمي ، فنجد أن نبي الإسلام ﷺ يتم تقديمه أحيانا على

أنـــه رســـول ، و أحيانا على أنه شاعر ملهم ، يرى رؤى خارقة ، و لهذا الغرض يســـتخدم مؤلف الكتاب المدرسي صيغة فعل الشك ، و الهدف من وراء ذلك هو زرع الشك في نفوس صغار التلاميذ في مصداقية الرسول محمد ﷺ ، و لقد لاحظنا أثـــناء إجـــراء هـــذه الدراسة عن صورة المسلم في المناهج الأوربية ، أنه في أغلب الأحـــيان يـــبدأ الحديث عن الإسلام بذكرى الانتشار السريع المخيف للإسلام من خـــلال الفـــتوحات الإسلامية ، في القرنين السابع و الثامن ميلادي ، و كيف أن جـــيوش المسلمين الزاحفة على أوربا اكتسحت تلك البلاد ، و استولت عليها بقوة الســـيف ، و أذلت أهلها و نهبت أموالهم و ثرواتهم ، حتى كانت هزيمة المسلمين عـــلى يـــد شارل مارتال ؛ القائد الفرنسي في معركة بواتيه في جنوب فرنسا عام 732 م ، أمـــا أهم فصل فهو الفصل الخاص بالحروب الصليبية ، فان هذه المناهج تصور الحروب الصليبية على أنها حروب كان الهدف الأساسي منها هو تحرير بيت القـــدس مـــن قـــيد " الكفار " أي المسلمين الذين كانوا حسب ادعاء الأوربيون يحـــتلونها، ويسيئون معاملة المسيحيين الشرقيين ، أي المقيمين في الشرق الأوسط ، وكذلـــك يســـيئون معاملة الحجاج المسيحيين القادمين من أوربا ، لزيارة الأماكن المقدســـة المسيحية في القدس ، و هذا الوصف يجعلنا نشعر بأن الأوربيين مصرون عـــلى تصـــوير المســـلمين عـــلى أنهم كفار مثلما كانوا يطلقون عليهم في القرون الوســـطى، فـــلا يوجد أي تعليق على هذا اللفظ سوى وضعه بين قوسين ، ليفهم التلميذ أن هذا اللفظ منقول كما هو من مصدر ما ؛ أي أنه دون محاولة من مؤلف الكـــتاب المدرســـي لتصـــحيح هذا المفهوم الخاطئ عن المسلمين ؛ كذلك أغفلت المناهج الدراسية الغربية التنديد بوحشية الصليبيين ، و عدم تسامحهم مع سكان بيت المقـــدس ، حـــين انتزعوها من أيدي المسلمين عام 1099 م ، بينما التاريخ العالمي

والموسوعات العلمية الكبرى اعترفت بأن الصليبيين ذبحوا أكثر من 70 ألف من المدنيين، من أهالي القدس دون تمييز بين النساء و الأطفال و الشيوخ، أو بين مسلمين و يهود مسيحيين ، كذلك لزمت المناهج الدراسية الغربية الصمت التام ، أو الإغفال التام لتسامح المسلمين ، حين استعاد المسلمون القدس عام 1187 م على يد القائد المسلم ، صلاح الدين الأيوبي ، الذي أصدر العفو العام على كل الأهالي - المسيحيين الغربيين - و هذا إغفال متعمد ، لإخفاء الحقائق التاريخية ، التي سجلها التاريخ ، و غني عن القول أن الدافع وراء هذا الإغفال هو تشويه صورة المسلمين في ذهن التلاميذ الغربيين، و الإصرار على عدم تصحيح المفهوم الخاطئ الذي ترسب في عقول التلاميذ ، و ما زال عالقا بها حتى اليوم ، و لعل أكثر الأمثلة دلالة على ظاهرة الإغفال المتعمد هو إغفال المناهج الدراسية الغربية الاعتراف بفضل الفلاسفة و العلماء العرب المسلمين على النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي ، و نادرا ما تذكر المناهج الدراسية اعترافا يدين أوربا تجاه علماء المسلمين ، ؛ من أمثال : ابن رشد ، و ابن المقفع ، و الخوارزمي ، و ابن سينا ، وابن النفيس ، و الذين كانوا منذ القرن التاسع الميلادي أساتذة و معلمي أوربا بأسرها .

منهجية تصحيح صورة الإسلام في الغرب :

يجب على المسلمين اليوم أن يحرصوا على تصحيح صورة الإسلام المشوهة في الغرب ، دون تفريط في أي حق من حقوق الإنسان المسلم ، و ذلك عن طريق التعريف الصحيح بالإسلام ، و إنكار السلوكيات المنحرفة و البعيدة عن روح الإسلام في زيادة تشويه صورة الإسلام في الغرب و في نفس الوقت يجب على الغرب أيضا أن يحرص على تصحيح الصورة المشوهة عن الإسلام ، و الثابتة في

وعـــي الغربـــيين ، و الـــتي يتوارثها جيلا بعد جيل ، عن جهل بالإسلام الحقيقي، ومفاهـــيمه الصـــحيحة ، و روحانـــياته الســـامية ، و يجب على الدول الغربية ، حكومات و مؤسسات أهلية ، أن تعترف بحق الإنسان المسلم ؛ سواء الذي يعيش في دولـــة إســـلامية ؛ أو في دولـــة أوربـــية أو أمريكية ، في أن يدافع عن عقيدته الإســـلامية ، و يمارســـها بحرية ، فهذا حق أساسي من حقوق الإنسان ، يجب أن يحـــترمه الغربـــيون ، ويحترمون الخصوصيات الدينية و الثقافية للمسلمين ، خاصة المسلمين المقيمين في الدول الغربية .

و نحن نعتقد أن تصحيح صورة الإسلام المشوهة في الغرب لن يتم إلا عندما يـــبدأ الغـــرب في التخلص من أثر الموروث التاريخي في وعيه و عقله عن الإسلام ، عـــلى الغرب أن ينظر إلى الإسلام بموضوعية و عقلانية ، و يطرد من فكره الأنماط المتجمدة عن الإسلام و المسلمين .

هذه الصورة الشائعة عن الإسلام في الغرب ، و التي تحتويها مناهج الدراسة في المـــدارس و الجامعات ، و التي تضمنها هذا التقرير ، أو هذه الدراسة التي تمت تحـــت إشراف هيئة دولية ، هي هيئة اليونسكو ، هذه الصورة الشائعة عن الإسلام في الغـــرب هـــي من غرس المستشرقين المتعصبين منذ ظهر الاستشراق و حتى يوم الـــناس هـــذا، و لا ســـبيل إلى تصحيح هذه الصورة إلا بتغيير المناهج الدراسية في الغرب ، فهل الغرب على استعداد أن يقدم على هذه الخطوة ؟

أغلب الظن أنه لن يفعلها أبدا ؛ لأن الغرب أحرص على بقاء صورة الإسلام مشـــوهة مـــنه على تصحيحها، لأن بقاء الصورة المشوهة هو الذي يجعل أبناءهم يشبون على كره الإسلام و المسلمين و احتقارهم ، و هؤلاء الأبناء عندما يصبحون ساســـة و قـــادة يتعاملون مع الإسلام و عالمه من هذه الخلفية الكريهة المشوهة،

وهذا ما نلمسه و نشاهده و نراه رأى العين في كل مكان ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

و بعـــد؛ هذا هو البحث المتواضع الذي قدمته إسهاما في أعمال هذا الملتقى الدولي، الذي تنظمه كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية بجامعة وهران ، عن الدراســـات الاستشراقية ، فان وجدت فيه أيها القارئ الكريم بعض النفع فهذا من فضل الله ، و إلا فاغفر لي ضياع وقتك ، و الله من وراء القصد .

الهوامش

1 – سورة سبأ : الآية 28 .

2 – سورة الأنبياء : الآية 107.

3 – سورة الأعراف : الآية 157.

4 – إبن الأثير : الكامل في التارخ ج 2 ص 212 بالأكارين : هم أتاع هرقل.

5 – تارخ الطبري ج 2 ص 649-25، الطبعة الثانية، دار المعارف-القاهرة.

6 – تراجع أخبار تلك المعارك في تاريخ الطبري ج 3ص394 وما بعدها.

7 – نجب العقيقي : المستشرقون ج3ص249، دار المعارف-القاهرة.

8 – راجع نشأة الدولة العثمانية وتطورها : كتاب الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، للدكتور عبدالعزيز محمد الشناوي ج1ص33 وما بعدها.

9 – العلامة محمود محمد شاكر : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص84-86، طبع دار الهلال بالقاهرة 1991م

10 – نقلا عن كتاب "الفكر الإسلامي الحديث" للدكتور محمد الحي ص51.

11 – المستشار محمد عزت إسماعل الطهطاوي : التبشير والإستشراق أحقاد وحملات ص36 من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة 1377هـ/1977م.

12 – د/زاهر عواض الألمعي : مع المفسرين والمستشرقين في وزاج النبي (صلعم) من زين بنت جحش ص29-30.

13 – حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص59-26.

14 – دكتور علي محمد عبدالوهاب: بين الإسلام والغرب..ضراوة أحقاد ومرارة حصاد 220-221، دار ركابي-القاهرة 1996م.

15 – د/علي حسن الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي ص37.

16 – أنظر: كتاب(حضارة العرب) لجوستاف لوبون ص066 وما بعدها.

17 – د/علي حسن الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي ص33-34.

18 – محمد العمروسي المطوي: الحروب الصليبية ف الشرق والغرب ص34،طبع دار الغرب الإسلامي- بيروت 1982م.

19 – بين الإسلام والغرب، مرجع سابق ص201.

20 – رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص9-10، ترجمة د/مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي-القاهرة.

21 – محمد العمروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص85-86.

22 – بين الإسلام والغرب، مرجع سابق ص203-204.

23 – مقال في جريدة الإهرام القاهرية بتاريخ 14يناير سنة 2000م بعنوان "صورة الإسلام في المناهج الدراسية في الغرب".

مصادر البحث

1 – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبع دار صادر – بيروت .

2 – جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة / عادل زعيتر ، مطبعة الحلبي – القاهرة.

3 – رودي بارت : الدراسات العربية و الإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة / د. مصطفى ماهر ، دار الكتاب العربي – القاهرة .

4 – زاهر عواض الألمعي ، مع المفسرين و المستشرقين ، دار الكتاب الجديد – بيروت .

5 – الطبري : تاريخ الطبري ، دار المعارف – القاهرة .

6 – عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام و أباطيل خصومه ، دار الهلال – القاهرة .

7 – د/ عبد العزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة .

8 – د/ عبد الجليل شلبي : صور إستشراقية ، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة .

9 – د/ علي حسني الخربوطلي : المستشرقون و التاريخ الإسلامي ، من مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة .

10- د/ علي محمد عبد الوهاب : بين الإسلام و الغرب ، دار ركابي للنشر بالقاهرة .

11- محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث و صلته بالاستعمار الأوربي ، مكتبة وهبة – القاهرة.

12- محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق و المغرب ، دار الغرب الإسلامي – بيروت.
13- د/ محمد إبراهيم الفيومي : الاستشراق رسالة استعمار ، دار الفكر العربي – القاهرة.
14- الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي : مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة .
15- محمد عزت إسماعيل الطهطاوي : التبشير و الاستشراق أحقاد و حملات ، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة .
16- محمود محمد شاكر : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، طبع دار الهلال بالقاهرة .
17- نجيب العقيقي : المستشرقون ، طبع دار المعارف – القاهرة .